

محمد عبد الخالق\*

عظيم النار من مستصغر الشر) .. هذه المقوله تلخص بوضوح حالة القلق التي عاشتها وتعيشها أوروبا منذ بدايات القرن الماضي وتحديداً مع التفاعلات التي ادت الى اندلاع الحرب العالمية الاولى اقتربا من الثانية بعد قيام الاتحاد السوفيتي وبروز الوطنية الالمانية الجامحة التي سامت على اثرها الحرب العالمية الثانية انتهاء بقيام الحرب الباردة الاولى وانتهائها ايضا، ثم الان عودتها في شكل حرب باردة جديدة لم يعد معالها تخفي على احد ويقوم على طرفيها بوضوح (روسيا العائد) من جهة وحلف شمال الاطلسي بقيادة الولايات المتحدة من جهة اخرى، وما بين روسيا والولايات المتحدة تنحصر اوروبا او (تنحشر وتزداد اعتمادا) الى حد الاختناق بين العملاء الروس والاميركي، ون ان ترك واشنطن للاوروبيين فسحة لالتقاط الانفاس والتصرف بما تمليه عليه مصلحتهم وامنهم القومي.

**إمدادات الطاقة والأزمة مع روسيا وحماية أمن ومصالح الأعضاء تأتي على رأس أولوياته**

# حاف شمال الأطلسي يسعى وراء مبررات جديدة للبقاء



میکر

\* فرانسوا بیرو

في هذا النطاق بتشكيل لجنتي حوار مع كل من جورجيا وكرواتيا للبحث في امكانية ضم البلدين الى عضوية الحلف، الامر الذي تم تعليقه خلال قمة الحلف السابقة في بوخارست في محاولة لترضية الروس . لكن التطورات اللاحقة فرست واقعاً جديداً في علاقات الطرفين، خاصة بعد الحرب في جورجيا واعلان استقلال اوسيتيا الجنوبية وباخازيا ومبادرة روسيا الى الاعتراف بهما اضافة الى حملة النشاطات السياسية وال استراتيجية التي اتخذتها روسيا خلال العام الجاري واهتمها المناورات العسكرية مع فنزويلا واطلاق تجارب صاروخية متعددة مضادة للصواريخ وتوجيه الصواريخ الاستراتيجية الروسية باتجاه اوروبا من جديد، ثم الجولات الدؤوبة للمسؤولين الروس في العديد من بلدان العالم للدعوة الى تشكيل عالم جديد متعدد الاقطاب يخرج من اطار القطب الواحد الذي هيمن عليه الولايات المتحدة خلال العقود الماضيين، وقد وقعت روسيا مع الهند في الخامس من هذا الشهر عشرة اتفاقيات رئيسية بينها اتفاقية للتعاون النووي المدنى مما يرفع شأن الشراكة الاستراتيجية بين البلدين وذلك عقب توقيع الهند ايضاً اتفاق تعاون نووي مع الولايات المتحدة فيما يشبه السباق بين روسيا والولايات المتحدة على كسب ود الدول الناشئة اقتصادياً تحسباً لحقبة ثانية من الحرب الباردة تطرح نفسها بقوة هذه الايام على مسرح الاحداث العالمية، وفي نفس اليوم تعهدت الولايات المتحدة والصين بدعم التجارة البينية ورصدت بkin عشرين مليار دولار لهذا الغرض مع دعوة الى مقاومة الحمائية، وتسهيل المبادرات التجارية للتخفيف من حدة الازمة الاقتصادية التي لم تتأثر بها الصين على نحو ما تأثرت بها الدول الغربية جميعها تقريباً والدول التي تسير في فلكها اقتصادياً وتأخذ بالياتها المالية والاستثمارية. لكن من الواضح ان روسيا تعرف هدفها التكتيكي جيداً حيث منطقة الضعف الواضحة في الامن الاقليمي الأوروبي ومخاوف اوروبا من ان يسفر نشاط حلف اطلسي عن مزيد من المواجهة الاقتصادية وربما العسكرية مع روسيا على اثر الضغوط الاميركية على الحلف واوروبا معاً للاستمرار في مواجهة روسيا والاستعداد لحرب باردة او حتى ساخنة جديدة معها وبيزرن ذلك واضحاً من اصرار واشنطن على المضي قدماً في زرع الدرع الصاروخية في تشيكيا وبولندا. وقد انتقدت روسيا بشدة يوم الجمعة الماضي منظمة الامن والتعاون في اوروبا متهمة الدول الاوروبية بالفشل في منع الحرب في جورجيا ، ويأتي الانتقاد الروسي على اثر اعتراف جورجيا بانها كانت البداية بالحرب التي انتهت باستقلال اوسيتيا الجنوبية وباخازيا، كما يأتي هذا الانتقاد العنيف متزامناً مع قيام جورجيا بقطع امدادات الوقود عن اوسيتيا الجنوبية الامر الذي اعتبرته روسيا تصرفًا غير انساني في ظل موسم الشتاء، وهذا الاتهام يمهد لروسيا في نفس الوقت للتصرف بالمثل في حالة اتساع النزاع حول الدرع الصاروخية او الحرب الجورجية مما يوفر لموسكو مشروعية ان تقطع امدادات الغاز عن دول اوروبية أخرى، وهذا الامر يزيد من قلق الاوروبيين ورغبتهم في التفاوض الموسع مع روسيا حول الامن الاروبي، ومن هنا ايضاً يجد مفهوم الامن الاروبي نفسه محاصراً في منطقة تنازع ما بين الوفاء بمتطلبات روسيا والالتزام بمقررات حلف شمال الاطلسى الداعية الى وضع معايير الحماية اوروبا بمعزل عن الروس ومتطلباتهم وادواتهم وفي اعقاب التحولات المستجدة حديثاً كالازمة المالية العالمية وتصاعد النداءات للإقال من حجم ضحايا المدنيين وكذلك تفشي ظاهرة القرصنة البحرية في الخليج عن على سواحل الصومال، وضع الحلف لنفسه خطة عمل جديدة وكذلك خطوة توسيع جديدة ايضاً لتصدي للعودة القوية لروسيا الى المسرح العالمي اعوية الى استعادة علاقاتها الخاصة مع مناطق كانت تحتى عهد قريب ترتبط مع الاتحاد الروسي بعلاقات تصادية وعسكرية كبيرة.

يضاف الى كل ذلك عودة الاعمال الارهابية العنفية التي شبه القارة الهندية متمثلة في انفجارات مومباي الدامية في السادس والعشرين من الشهر الماضي وما ترت علىها من توثر في العلاقات بين الهند وباكستان.

وقد بزرت التوجيهات الجديدة للحلف بوضوح من خلال ٣٩ بدأ كانت متضمنة في البيان الخاتمي لمؤتمر زراء خارجية حلف شمال الاطلسى في بروكسل خلال يومين الثاني والثالث من ديسمبر الجاري.

فضلاً عن النشاطات التقليدية للحلف اضيف نشاطات جديدة ممثلة في المشاركة في الدعم الانساني لمناطق النزاعات والتدخل في المناطق البحرية التي مررت السفن البحرية فيها عمليات قرصنة والتي لا تقتصر على المنطقة البحرية في الخليج عدن وسواحل صومال فقط وإنما اكمل رئيس اللجنة العسكرية في حلف الأدميرال جيمس باولو دي باولا : ان النشاط بجري للحلف يعني هذه المنطقة، حيث اشار الى ما سميته الحلف (أوبريشن اكتف انديفور) وتحت هذا اسم يعتزم الحلف توقيف سفن في البحر الابيض المتوسط وتقتيشها لاحقاً عن اسلحة او لمقاومة نشاطات هابية محتملة وهو ما اكمل عليه وزراء خارجية الحلف في البدن الرابع عشر من بيانهم الخاتمي الصادر في يوم الثاني والأخير من اجتماعهم في مقر قيادة حلف بروكسل الأسبوع قبل الماضي حول عمليات لمusu الشيط) وهي عملية ليست حدثة العهد وإنما يجري تفعيلها في البحر الابيض المتوسط في مسعى حماية الممرات البحرية (المكشوفة) خارج نطاق مياه الاروبية لمواجهة الاخطار البحرية وتطبيق نظر انتشار اسلحة الدمار الشامل. ذلك اضافة الى فعيل مبادرة الحوار المتوسطي وهو احدى ادوات حلف لعقد اتفاقيات تعاون امني مع الدول الواقعه في البحر المتوسط شريطة ان ترغب تلك الدول في الانضمام الى هذه المبادرة.

### الناتو وروسيا:

كانت روسيا بمثابة الغائب الحاضر في اجتماعات زراء الخارجية الاعضاء في حلف الناتو ببروكسل حيث بدا واضحاً مدى الفرق الذي ترت على تصعيد روسيا لنشاطها السياسي العسكري عبر العالم الامر الذي ترك ظلاله الثقيلة على مباحثات الوزراء واظهر في نفس الوقت اقساماً واضحاً في المواقف ما بين اعضاء الاوروبيين وغير الاوروبيين داخل الحلف.

بينما اكمل الوزراء في بيانهم الخاتمي على اهمية استمرار في الحوار مع روسيا الا ان الواقع اشارت ازمة مت坦مية بين الجانبين، وتحول (مجلس الناتو روسيما) من اطار للتنسيق مع روسيا الى مجرد اطار كلّي يتم داخله عقد حوارات (غير رسمية) حول قضايا المتنازع عليها، وقد اكمل الامين العام للحلف اب دي هوب شifer في مؤتمر صحفي على مصطلح غير رسمية) ليشير بوضوح الى توقف الحوار لرسمي) بين الجانبين. وقد خطا الحلف خطوة ابعد

اقتصاديات أميركا اللاتينية مثلاً في البرازيل، ثم قترابها من سواحل فنزويلا وقيام مناورات بحرية ووسية فنزويلية تؤكد أن روسيا استعاضت عن سواحل كوبا بسواحل فنزويلا لبعث رسالة أشد قرباً من السواحل الأميركيّة وأكثر ازعاجاً لواضعى السياسة نى البيت الإبيض الأميركي الذي اخذوا يشعرون ان الجهود الرامية الى عزل روسيا قد اتت بنتائج عكسية. وفي إطار إعادة التشكيل لخريطة العالم حرصت روسيا على ان تكون علاقاتها مع أطراف المحور الجديد في هذه التعددية القطبية قائمة على تبادل لمصالح وليس على اساس الاستفادة القصوى من هذه العلاقات لصالح طرف واحد كما هو نهج السياسة الخارجية الأميركيّة على سبيل المثال، وثمة دول اخذت تراجع موقفها من التجاذبات الأميركيّة لروسية عليها، وتأتي على سبيل المثال السياسة الليبية الجديدة التي اخذت تعود الى احضان روسيا عقب زيارة الزعيم الليبي معمر القذافي الأخيرة الى موسكو وما تمخضت عنه من مشروعات مشتركة بينها خط سكة حديد تنشئ روسيا لربط مدن الساحل الليبي على البحر المتوسط، بينما كان كل هدف أميركا وأوروبا ابتزاز الاموال الليبية عبر افتتاح شخصياً تعويضات بمبالغ كبيرة وضغوط ادت الى فكك البرنامج النووي الليبي وتسلیمه الى الولايات المتحدة. وعلى الطرف الآخر عززت روسيا علاقاتها مع الصين بعد خلافات أيديولوجية كانت تخيم على علاقات البلدين خلال الحقيقة السوفيتية وشرع البلدان في تقرير المسافات بينهما عبر خطوط سكة حديد ضخم يربط الاراضي الروسية بنظيرتها الصينية. ذلك في الوقت الذي تتمادى فيه الولايات المتحدة في ستنزاف مقدرات أوروبا والأطراف الأخرى في حلف الناتو عبر مغامرات عسكرية في افغانستان والعراق والقرن الإفريقي لم تنجح أي منها في الوصول الى غايات بناء لأي طرف من أطراف المعادلة، بما في ذلك الأهداف الأساسية لحلف الناتو المتمثلة في حماية الأمن الأوروبي وحماية موارد الطاقة ومنع الانتشار لأسلحة الدمار الشامل. إلى غير ذلك من الاهداف المعلنة لحلف شمال الأطلسي القديمة والجديدة.

اتجاهات الجديدة للناتو:

■ لكن ما علاقة ذلك بالمقولة التي تصدرت هذا المقال؟ وللإجابة على هذا السؤال نعود بالذاكرة إلى منطقتي البلقان والقوقاز وأحداثهما عبر التاريخ الحديث وتلمح (بؤراً) صغيرة انطلقت منها الشارة الأولى لقيام كل تحول من التحولات الكبرى التي تورق أوروبا. فالحرب العالمية بدأت من البوسنة والحرب الباردة الثانية بدأت من كوسوفو عقب اعلان استقلال ذلك الأقليم الصغير المغلق المحاط باليابسة من كل مكان والواقع في قلب البلقان بخطيبه الديمغرافي البالغ مليوني نسمة منهم ٩٠ مسلمون من أصول البنية.

لقد كان التأييد الأميركي والروسي لاستقلالإقليم عام ٢٠٠٨ اشارة قوية لروسيا بأن تأثيرها على المسرح العالمي قد تبدل وأنه يراد لها أن تعيش في إطار مفهوم يصنفها ضمن العالم الثالث دون أن تأتي قدرة على مناطحة القوى الكبرى وكانت الرسالة واضحة وبالغة الدلالة بأن أوروبا والولايات المتحدة سيستخدمان زراعهما القوية (حلف الناتو) لضافة مزيد من القبود حول اطراف الدب الروسي لشن حركته تماماً عبر مجموعة من الصيغ والخطط واضحة المعالم على الصعيدين العسكري والسياسي.

فعقب الإعلان عن تنصيب الدرع الصاروخية الأميركية في تشيكيا وبولندا أخذ حلف الناتو يقيم مؤتمراته بكثافة في أراضٍ كانت تتبع الاتحاد السوفيتي السابق وأخرها القمة السابقة في ريجا عاصمة لاتفيا ويوخارست عاصمة رومانيا عامي ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨، ثم شرعت الاتصالات والمحاجات المكثفة لضم جورجيا وكرواتيا المحبيتين بروسيا إلى الحلف لاعطاء مزيد من الرزم لحالة الاستفزاز المتواصلة الرامية إلى سير أغوار القدرة الروسية على رد الفعل، وايضاً لاعطاء مزيد من الرسائل بأن عالم الثنائية القطبية قد ولى إلى غير رجعة وإن على العالم المعاصر وروسيا في مقدمته التسلیم بريادة الولايات المتحدة لعالم الأحادية القطبية، وكانت تحركات حلف الناتو هي الإشارات واضحة الدلاله على صرامة هذا التحرك والذي تجر فيه الولايات المتحدة أوروبا عندها مواجهة مع الاتحاد الروسي. بالطبع كان استقلال كوسوفو هو الضربة الثانية لروسيا بعد التسوية (العنفية) التي قام بها حلف الناتو في البوسنة والهرسك وانتهت باتفاق دايتون عام ١٩٩٥ عقب قصف عسكري مركز على موقع الجيش الصربي ثم اعتقال الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش ومحاكمته أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي ثم وفاته خلال المحاكمة. وبهذه (الهزائم) المعنية التي تعرضت لها روسيا لم يكن أمامها سوى أن تتحرك ولكن في ولكن ثوب جديد وغير خطط محكمة لاعطاء الانطباع بأن روسيا العائد بقوه على مسرح الاحداث العالمية ليست بمثابة اعادة بعث للاتحاد السوفيتي او الثنائية القطبية، وإنما بمثابة عودة جديدة اكثر قوه عبر التنسيق مع قوى اقليمية اخرى في الشرق مثل الصين والتنسيق مع قوى اليمين العالمي الذي كان الاتحاد السوفيتي يناسبه العداء فيما قبل، وكذلك في ظل الانفتاح الاقتصادي على القيم الغربية وتفاعلات قوى السوق، ومفاهيم العولمة التي تأسست في الغرب، وبذلك ارسلت روسيا رسائل طمانة لكل المتوجسين من عودة روسيا وفي مقدمتهم الاتحاد الأوروبي ان هذه العودة لن تكون بمثابة ردة للوراء او نزعة نحو الهيمنة وإنما محاولة جادة لإعادة صياغة التوازنات الدولية على نحو اكثر عدلاً في توزيع الاعباء والمنافع على رقعة العالم. وسرعان ما لقيت